الدرس الثاني/ النظرية النقدية عند" ابن رشيق المسيلي" المشهور **(بابن رشيق القيرواني):**

ولد بالمسيلة سنة 390هـ وتوفي بصقلية (إيطاليا) سنة 456هـ.

أولا/ مفهــوم الشعـــــر:

وقد تطرق **" ابن رشيق"** إلى هذه القضية في كتابه**(العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)** حيث أن الشعر عنده لم يكن مجرد ألفاظ موزونة أو أقوال تدل على معنى، وإنما الشعر عنده << يقوم بعد **النية** على أربعة أشياء، هي **اللفظ** و**الوزن** و**المعنى** و**القافية**، فهذا هو حدّ الشعر، لأنّ من الكلام موزون ومقفى وليس بشعر لعدم القصد والنية>>. وهو بهذا التعريف الذي وضعه للشعر يكون محتواه متلائما مع الطبيعة الفقهية التي تضع**" النية "** في طليعة ما تضعه من شروط العمل الذي يرومه الناقد، إنّما يهدف به إلى ما قرره النقد الحديث كذلك بهذا الشأن وسمّاه**" المقصدية "** ف(ابن رشيق)، حين يصدر أحكامًا ويقرر تقويمًا نراه يتأنّى ليخرج بقاعدة واضحة تبين عن تبصر وتثقف، كما أوضح في بنية الشعر هذه. كما اشترط خاصية في الشعر تميزه وتتمثل في**(الشعور النفسي الصادق والعميق)** الذي ينقل إلى المتلقي رأي الشاعر في موضوعات معينة، وهذا يدل على فهمه الدقيق لماهية الشعر، وبالتالي فهو يجعل **الإحساس الشعري** عنصرًا هامًّا من عناصر الشعر. حيث يرى أنّ الشعر يرتكز على تأثيره في نفوس المتلقين على أساس وجود عملية توصيل كاملة، فالشعر لابدّ أن يكون نابعًا من إحساس صادق، وشعور عميق متميز عن غيره.

كما نجده يستعرض آراءه وآراء غيره، فيذكر أن مختلف الأغراض الشعرية، إنما تعود إلى قضايا رئيسية كبرى، وكأنه بذلك يردد ما قاله القدامى الذين زعموا أن<< أشعر الشراء النابغة إذا رهب، وامرؤ القيس إذا ركب، والأعشى إذا طرب، وزهير إذا رغب.>> وهذا ما يبين ميل ناقدنا " ابن رشيق" إلى تفضيل الشعر على حساب النثر، حيث يقول<< كل منظوم أحسن من جنسه في معترف العادة.>> فهو كغيره من النقاد القدامى يفضل الشعر<< إذْ قسم الكلام أولا إلى موزون و إلى منثور، وفي الشعر ما هو جيد في لفظه ومعناه، ومتوسط ومقبول في لفظه ومعناه، ورديء فاسد تمجه الأذواق في لفظه ومعناه كذلك>>. ومن خلال ما تقدم يكون" ابن رشيق" حذا حذو القدامى في تحديد ماهية وحقيقة الشعر، واستفاد من جميع آرائهم، إذْ يرى أنّ الشعر(يقوم أولا على **القصد والنية**، ثم بعد ذلك يأتي **الوزن واللفظ والمعنى والقافية)**، وهذا هو حدّ الشعر عند " ابن رشق القيرواني".

ثانيا/ بــواعث الإبـــــداع:

وقد تفطن" ابن رشيق" إلى هذه القضية، وأقرّ بوجود بواعث تساعد الشاعر على الإبداع والتركيز، ومن خلال النصوص الواردة في كتاب " العمدة "، فقد تحدث عن بواعث **نفسية**، وبواعث **مكانية**، وبواعث **زمانية**، وغيرها من البواعث، وهذه البواعث تختلف من شاعر إلى آخر،إذ يقول:<< إنّ للناس... ضروبًا مختلفة يستدعون بها الشعر، فتشحذ القرائح، وتنبه الخواطر، وتلين عريكة الكلام، وتسهل طريقة المعنى، وكل امرئ على تركيب طبعه واطراد عادته>>.

1- البواعث النفسية: ومن العواطف المختلفة التي يمكن أن تسهم في فتق مواهب المبدع حسب رأي" ابن رشيق"

عواطف (الغضب، الرهبة، والرغبة، والطرب)، فيقول:<< .. فمن الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع>>.

ومن خلال ذلك يتضح أنّ الحالة النفسية للشاعر مهمة جدًّا في العملية الإبداعية، لذلك قيل بأنّ النتاج الأدبي وثيقة نفسية لدراسة الفنان وفهمه، فضلا عن اتخاذ شخصيته كوسيلة لفهم نتاجه وتفسيره ونقده، والمبدع كثير الانفعالات حياته زاخرة بأنواع شتى من الصراعات لا يحسن التغلب عليها إلا من خلال التعبير الفني.

2- البواعث المكانية: إنّ طبيعة المكان لها دور فعال في حياة المبدع، فكل مبدع له شخصية متميزة، قد يحبذ أشياء وأمكنة لا يحبذها مبدع آخر، لذا نجد كل مبدع يختار المكان الذي يراه مناسبًا له ويوفر له الراحة النفسية ويساعده على تفجير طاقته الإبداعية، فتحدث "ابن رشيق" فقال:<< كيف يصنع إذا عسر عليك الشعر، قال: أطوف في الرباع المحيلة والرياض المعشبة، فيسهل عليّ أرْصَنُه، ويسرع إليَّ أحسَنُه>>. وقيل أيضا أن "الفرزدق" إذا صعب عليه قول الشعر:<< يركب الناقة، ويطوف منفردا في شعاب الجبال ويطوف الأودية والشعاب الخربة>>. حيث يربط "ابن رشيق" بين المكان والقدرة على الإبداع والخلق الفني، فالمكان يساعد ويدفع الشاعر على قول الشعر فتحدث عن تجربة الإبداع والخلق الفني عند أكثر من شاعر، فنوعية المكان عنده تسهم في تصفية الذهن والخواطر، فالمكان يؤثر على نفسية الشاعر.

3- البواعث الزمانية: يرى" ابن رشيق" أنّ كل شاعر يحبذ زمنًا معينًا يفجر فيه طاقاته الإبداعية وقد أورد في هذا المجال قولا " لإبن قتيبة "، يقول:<< وللشاعر أوقات يسرع فيها أَتِيُّهُ يسمع فيها أَبِيُّهُ، منها أول الليل قبل أن تغشى الكرى، ومنها إصدار النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير>>، فالزمن حسب" ابن رشيق" مهم في العملية الإبداعية، فلكل شاعر زمنًا يحبذه، يحرك مواهبه ويحفزها على الإبداع الشعري.

ثالثا/ اللفظ والمعنى:

لقد اهتم " ابن رشيق" كغيره من النقاد بهذه القضية، وأفرد لها بابًا مستقلا في كتابه " العمدة " وحرص على تناولها تناولاً دقيقًا، وصاغها صياغة واضحة، أعانه عليها فهمه لآراء سابقيه ومعاصريه في هذه القضية، إذ يقول:<< اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإن سلم المعنى واختل بعض اللفظ، كان نقصًا للشعر وهَجْنَة عليه، كما يعرض لبعض الجسام من العرج والشلل... من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح... فإن اختل المعنى كلّه فسد، وفسد اللفظ جملة، وبقي اللفظ مواتًا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة في السمع... وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى، لأن لا نجد روحًا في غير جسد البتة

>>. إنّ"ابن رشيق" يؤمن بالارتباط الوثيق بين(اللفظ والمعنى) لذلك راح يبين قوة الارتباط بينهما، وضرورة تآزرهما وتلاحمهما في العمل الأدبي الفني، فهو لم ينحاز إلى طرف دون الآخر، فقد شبه اللفظ بالجسم وشبه المعنى بالروح، والعلاقة بينهما جدّ قوية، تشبه العلاقة بين الجسد والروح، ولذلك من الصعوبة الفصل بينهما وهذا يدل على مدى إدراكه لأهمية تكامل عناصر الفن الأدبي وصعوبة إرجاع القيمة الفنية والأدبية إلى أحدهما دون الآخر، لذلك حسم القرار بأنّه إذا اختل أحدهما ضعف العمل الأدبي، وأصبح يفتقر إلى القيمة الجمالية، لأنّ القيمة تنبع من تلاؤم هذه العناصر في العمل الأدبي. ومن خلال انقسام النقاد حول موقف " ابن رشيق" من قضية اللفظ والمعنى، تؤكد على أنّه لم يكن من أنصار المعنى ولا من أنصار اللفظ، وإنّما حاول الميل ـ في الغالب الأعم ـ إلى الذين دعوا إلى الترابط التام والمساواة بين اللفظ والمعنى.

رابعا/ الطبــع والصنعـــــة:

فقد تناول " ابن رشيق" بالدراسة (قضية الطبع والصنعة) وخصها بباب مستقل في كتابه (العمدة) حيث يرى أنّ الشعر فيه المطبوع وهو الأصل الذي بني عليه، وفيه المصنوع فيقول<< ومن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً وعليه المدار، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفًا تكلف أشعار المولدين، لكن فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمد، لكن بطباع قوم عفوا فاستحسنوه، ومالوا إليه حتى صنع (**زهير)** الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف>>. ويتضح من خلال هذا النص أن الشعر قسمان: النوع الأول، فهو(**الشعر المطبوع)** وهو الأصل الذي يدور عليه الكلام،لأنه يصدر عن نفس قادرة على قول الشعر على سجيتها دونما تكلف، أما النوع الثاني فهو **(الشعر المصنوع)** وهو الشعر الذي اعتنى صاحبه وحرص على تنقيحه والنظر فيه، فيبدل ويغير بعض الألفاظ والعبارات، ولكن دون جدوى أن يجهد نفسه في البحث عن الصور البيانية والمحسنات البديعية... و خير مثال على هذا النوع شعر(زهير بن أبي سلمى) فقد كان<<يصنع القصيدة، ثم يكرر نظره فيها خوفًا من التعقيب>>.

لقد وقف" ابن رشيق"موقفًا وسطًا من هذه القضية، فلم يقدم (الطبع)على(الصنعة) ولا (الصنعة)على(الطبع)، وإنّما توصل إلى أنّ العملية الإبداعية في الشعر تنطلق من الطبع والموهبة ثم تنقح وتهذب عن طريق الصنعة الخفيفة التي تبقي على رونق الشعر وقوة الطبع، كما أنّ " ابن رشيق" لم يجعل**" الطبع"**حكرًا على الشعراء القدماء من جاهليين وإسلاميين، كما أنّه لم ينفي عنهم معرفتهم بالصنعة والتهذيب، كما أنّه لم يجزم أن **(الصنعة)** من ابتكار المولدين، وأخيرا يمكن القول أنّ الشعر الحقّ عند " ابن رشيق" هو الشعر المطبوع والمصنوع في آن واحد.

خامسا/ قضيــة القديــم والحــديث:

لقد خص" ابن رشيق" لهذه القضية بابًا كاملاً في كتابه (العمدة)، ولقد بدأ حديثه عن القدامى والمحدثين، بالإشارة إلى نسبة القدم والحداثة، مبيّنًا أنّ كل قديم يعتبر في زمانه حديثًا، وكل حديث مع مرور الأيام يصبح قديمًا، يقول:<< كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله>>. فقد كان موقفه معتدلاً من هذه القضية، فلا يميل للقديم لقدمه، ولا يفضل الحديث لحداثته، إنّما يعتمد في حكمه على المعايير الفنية، فلا يقدم إلا

الشعر الجيد ولا يؤخر إلا الشعر الرديء، ولكن الحكم للأجود منهما فقال في باب آداب الشعراء:<< والمتأخر من الشعر في الزمان لا يضره تأخره إذا أجاد، كما لا ينفع المتقدم تقدمه إذا قصر، وإن له فضل السبق فعليه درك التقصير، كما أنّ للمتأخر فضل الإجادة والزيادة >>، ومن خلال ذلك فإنّ " ابن رشيق" يرى ضرورة تحكيم المعيار(الفني) في الحكم ويرفض المعيار (الزمني). وانتهى في الأخير إلى الإيمان بالتسوية للأجود منها، فهو لم **يتعصب للقديم لقدمه** كما أنه لم **ينتصر للجديد**

لجدته، إنّما نادى **بالتوسط والاعتدال،** وبيّن أنّ المعيار الزمني لا يصلح للحكم بمفرده على الشعراء. يتضح من كل هذا أن"ابن رشيق"سوّى بين القدماء والمحدثين، ورأى أن العبرة إنما تكون للأجود. وهذه النظرة للقدماء والمحدثين تعدّ نظرة سوية وعادلة تدل على بعد نظره ورصانة رأيه ووضوح رؤيته، وهذا ما جعل منه ناقدًا متميزًا، واستطاع بذلك كسب مكانة ليس على مستوى المغرب العربي فقط بل على مستوى الوطن العربي الإسلامي.

سادسـا/ وظيفـــة الشعـــــر:

يرى" ابن رشيق" أنّ وظائف الشعر متعددة لا ينهض بمثلها فنّ قولي آخر في المجتمع العربي القديم، ويبرر ذلك بقوله: << كان الكلام كله منثورا، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها، وذكر أيّامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأبجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تمّ لهم وزنه سمّوْه شعرًا، لأنّهم شعروا به ، أي فطنوا...>>. نستخلص من هذا النص مدى أهمية الشعر عند العرب وقيمته، وبعده الأخلاقي، فهو الفن الوحيد الذي استطاع أن يسجل ويحفظ أمجاد وتاريخ العرب. كما أشار" ابن رشيق" إلى بعض الوظائف التي يؤديها الشعر على مستوى القبيلة كبنية اجتماعية في المجتمع العربي، ومن تلك الوظائف (حماية الأعراض)، فالشاعر هو السدّ المنيع الذي يحمي القبيلة، لذلك احتل الشعر مكانة مرموقة في نفوس العرب، ويتضح هذا من فرحهم واحتفالاتهم حينما ينبغ شاعر فيهم، حيث<< كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها...لأنّه حماية لأعراضهم وذبّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج>>. وهذا يعني أنّ الشاعر كائن متميز في تصوراته وتطلعاته ونبوءاته عن الآخرين، لهذا كان الاحتفال بنبوغه مسألة لها أكثر من قصد، وكأنّ القبائل وجدت في الشاعر ملاذا من الأعداء، فالشاعر وشعره في خدمة القبيلة يسجلان المفاخر والمآثر، ويدافعان بما أوتيا من قوة عن وجود القبيلة، فالقبيلة التي تملك شاعرا فحلاً، مقتدرًا تهَابُها القبائل الأخرى، ولا تستطيع أن تهاجمها أو تتطاول عليها. لذلك يعتبر الشعر سلاحًا لحماية القبيلة وإبراز مكانتها فيما بين القبائل، سواء من حيث القوة، والشرف أو المكانة... .

س**ابعـا/ السرقـات الشعـريـــــــة :**

لقد اهتم " ابن رشيق"بهذه القضية اهتماما بالغا، فدرسها في مؤلفين من مؤلفاته هما: (**العمدة في محاسن الشعر** وآدابه ونقده) وكتاب(قراضة الذهب في نقد أشعار العرب). وقد نهج في دراسه (**للسرقات)** منهجا استوعب فيه جميع الأفكار التي سبقته، كما أضاف إليها نظرات خاصة ومبتكرة لها قيمتها النقدية. وقد صرح أن موضوع

السرقات موضوع واسع جدًّا، لا يستطيع أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه،لأن<<السرقة فيها أشياء غامضة، لايستطيع كشفها إلا البصير الحاذق بصناعة الشعر ونقده، كما فيها الواضحالذي لا يخفى على الجاهل المغفل>> . وقد عمل"ابن رشيق"على ابراز أنواع السرقات، وحاول تغيير المصطلحات المنبثقة عن مصطلح السرقة، فقسمها إلى:

1ـ سرقة اللفظ مع المعنى.**2** ـ سرقة المعنى مع تغير بعض اللفظ . **3ـ** سرقة تعتمد على تغيير بعض المعنى أوقلبه. ومن هذه الأنواع تتولد سلسلة من الاصطلاحات لأوجه السرقات، يسردها " ابن رشيق" في كتابه (العمدة) ويدعمها

بالشواهد والأمثلة قصد شرحها وتفسيرها أكثر للمتلقي، وفي هذه التعابير نذكر منها ما تيسر من السرقات:

***الاصطراف** : وهو أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه لنفسه.

***المرافدة** : وهي أن يعين الشاعر شاعرا بأبيات يهديها له (هبة) وتسمى أيضا الاسترفاد.

***الموازنة** : هي أخذ بنية اللفظ دون المعنى.

***الاختلاس أو النقل** : وهو أن يأخذ الشاعر المعنى وينقله من الغرض الذي جاء فيه إلى غرض آخر. مثلا من الغزل إلى المديح... وغيرها من المصطلحات التي نعت بها " ابن رشيق" أنواع السرقات، أغلبها نجدها في مصنفات المتقدمين إلا أن" ابن رشيق" جمعها وتميز عنهم بتحديد معانيها. فحاول إعطاء مفاهيم ينظر بها لهذه القضية والفصل بين ما اعتبرها سرقة حقيقة، وما اعتبرها معاني متداولة وغيرها من أنواع السرقات والأخذ. كما يشير إلى الأخذ الظاهر والغير الظاهر، والأخذ المستحسن والأخذ القبيح، وقد كان في دراسته للسرقات عالمًا بالشعر،عارفًا بفنونه، ومدركًا لإبداعات الشعراء ، ومميزًا بين المبدع منهم وغير المبدع بمهارة فائقة وقدرة بالغة.